The War Letters in Subhil A'asha's Book of Writing Creativity of Al-Qalaqshandi: An Objective and Artistic Study

Dr. Omar Ahmad Rbehat
Department of Arabic Language - Faculty of Arts & Sciences
The World Islamic Science & Education University – Jordan
Omer_rbehat@yahoo.com

Dr. Ahmad chaleb Al-Kresheh
Department of Arabic Language - Faculty of Arts & Sciences
The World Islamic Science & Education University – Jordan
ahmad10_5@yahoo.com

Received 23/6/2013 Accepted 22/10/2013

Abstract:

This study aims at investigating war messages in al-Qalqashandy's book: Subh al-A`sha fi Sina`at al-Insha.

It is noted that the author is highly depended on various written documents and official letters including war messages, which contributed to spreading Islam and promoting Jihad among Muslims.

The study showed that the messages addressed many war- related issues including the army's movements, weapon's, and battles' descriptions.

As for technical features, the messages depended on verses from the Holy Quran, poetry, proverbs and rhetorical devices.

"رسائل الحرب في كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العبَّاس أحمد بن علي القلقشنديّ -دراسة تحليليَّة فنيَّة

د. عمر أحمد الربيحات
قسم اللغة العربية-كلية الآداب والعلوم
جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة-الأردن
Omer_rbehat@yahoo.com

د. أحمد غالب الخرشة
قسم اللغة العربية-كلية الآداب والعلوم
جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة-الأردن
ahmad10_5@yahoo.com

تاريخ استلام البحث ٢٠١٣/٦/٢٣ تاريخ قبول البحث ٢٠١٣/١٠/٢٢

ملخَّص

يهدف هذا البحث إلى دراسة رسائل الحرب في كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العبَّاس القلقشندي دراسة تحليليَّة فنيَّة، فمن المعروف أنَّ القلقشندي اعتمد في جمع مادة كتابه على محفوظات ديوان الإنشاء من المراسلات، والمكاتبات الرسميَّة التي تجمَّعت خلال العصور المتعاقبة، وكان من بين هذه المراسلات رسائل الحرب التي أسهمت في رفع راية الجهاد، ونشر رسالة الإسلام، وقد تبيَّن لنا من خلال هذا البحث أنَّ هذه الرَّسائل تنوَّعت تنوُّعاً ملحوظاً، فاتخذت أشكالاً عدّة، منها: الرَّسائل الصادرة إلى أمراء السَّرايا، وكتب الحث على الجهاد، وكتب الفتوحات واسترجاع الحصون، ووصف المعارك، والانتصارات، وحركة الجيوش، ووصف الأسلحة والآلات الحربيَّة، ورسائل الاستنجاد، والمكاتبات بالاعتذار، والتّهديد، وذم المهزوم وتقريعه، أما من حيث الخصائص الفنيَّة فقد تبيَّن لنا أنَّ هذه الرَّسائل تميّزت بسمات فنيَّة خاصة كالإكثار من المحسنات البديعيَّة، والاقتباس من آيات القرآن الكريم، وتضمين الأشعار والاستشهاد بها، إضافة إلى الإكثار من الأمثال، والأقوال المأثورة، والحكم، والاعتماد على التصوير.

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فتعدُّ الرسائل من الفنون النثريَّة التي وُجِدَتْ منذ أقدم العصور، ذلك أنَّ الإنسان بطبعه يميل إلى الاتصال بالآخرين والتخاطب معهم، وقد ظهر فن الترسّل عند العرب منذ العصر الجاهلي، إلاّ أنَّ أول ما وردنا من هذه الرسائل وكتاباتها وكتَّابها كان على عهد الرسول– صلَّى الله عليه وسلَّم– والرسائل كباقي الفنون الأدبية الأخرى، نشأت بعد ولادة طبيعية نشأة مميزة، وتطوّرت تطوّراً حثيثاً في مواضيعها وأنواعها وأصولها الفنية، حتى غدت فناً قائماً بذاته، بل أصبح كلُّ نوع منها له أصوله، وفنونه المتعارَف عليها التي لا يخرج عنها.

وقد كتب كثير من علماء الأمة السَّابقين في فنون الرَّسائل، وأصحاب دواوينها، وصفاتهم المهنيَّة والأخلاقيَّة، ومن هذه الرَّسائل ما اختص بالمراسلات الداخليَّة، بين أمصار الدولة وولاياتها، كالكتابة للولاة، وقادة الجُند، والعمَّال، وأصحاب الخراج وغير ذلك من المراسلات الداخلية، وهناك ما اختص بالمراسلات الخارجية، وهي مراسلات الخلفاء مع ملوك الدول الأخرى المحيطة بالدولة الإسلامية، كفارسن والروم، والأحباش، والأقباط، وغيرهم ممن يحيط، أو يبعد عن الدولة الإسلاميَّة.

أما التقسيم الآخر للرسائل من الناحية المضمونية، فإنَّها تنقسم إلى قسمين رئيسين، هما: الرَّسائل الإخوانية التي يتم تبادلها بين الإخوان، والأقارب والأصدقاء في قضايا شخصيَّة، أو أمور اجتماعيَّة متنوّعة، والرَّسائل الديوانيَّة التي تتعلق بالتنظيم والإدارة والعلاقات الدوليَّة، وما يهمّنا في هذا البحث هو الرَّسائل الديوانيَّة، ومنها رسائل الحرب التي أسهمت في رفع راية الجهاد، ونشر رسالة الإسلام والدفاع عن أراضي المسلمين ومقدساتهم، حيث تناول هذا البحث هذا النوع من الرسائل من خلال كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العبَّاس أحمد بن علي القلقشنديّ، وفق منهج يقوم على تتبع هذه الرسائل، وتقصيها في هذا الكتاب وما يرفده من مصادر ومراجع قديمة، وحديثة بغية الوقوف على أنواعها وموضوعاتها، ومن جانب آخر اعتمد البحث على المنهج التحليلي في دراسة النص، وسبر أغواره، وتبيّن سماته الفنية، وعليه فقد جاء في تمهيد وقسمين وخاتمة، أما التمهيد فتضمن الحديث عن دور هذه الرسائل في بيان هدف الجهاد وأهميته، وصفات كتَّابها، والطريقة المتبعة في كتابتها، في حين تضمّن القسم الأول أنواع هذه الرسائل وموضوعاتها، وتضمن القسم الثاني السمات الفنية لها، وأوجزت الخاتمة أهم النتائج التي توصَّل إليها هذا البحث.

والله تعالى المؤيِّد والمسدِّد، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.

تمهيد:

دور الرَّسائل في بيان هدف الجهاد وأهميته:

كانت كتابة الرَّسائل من أكثر أنواع الكتابات النثريَّة ازدهاراً ونشاطاً في النثر العربي، ذلك أنَّها تتطرق إلى موضوعات شتّى، تهم الناس بمختلف أطيافهم وثقافاتهم، إذ كانت تدور حول موضوعات متعددة شخصية ورسمية، ومن الموضوعات الرسمية التي كان للرسائل محور رئيس فيها، رسائل الجهاد في سبيل الله، لنشر رسالة الإسلام والدفاع عن الأراضي الإسلامية، حيث شاركت هذه الرسائل في حمل رايته، وبيان هدف المسلمين منه، إذ إنَّ الأصل في العلاقة بين المسلمين، ومخالفيهم هي السلم حتى لا يكون هناك اعتداء على الأنفس، أو اعتداء على حرية الفكر وحرية العقيدة، كأن يُمنع الناس من أن يستمعوا إلى دعوة الحق ويفكّروا في اختيارها أو عدمه، فيرفضونها عن بينة بعد أن قام الدليل ليحملوا وزر الرفض، أو ينالوا ثواب القبول، فقررت الجمهرة العظمى من الفقهاء أنَّ الأصل في الحروب الإسلامية الدعوة للإسلام، ودفع الأعداء[١].

ولهذا بعث رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم–بكتب عدِّة إلى ملوك الروم، والعجم يدعوهم إلى الإسلام، فقد "بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعباد ابني الجلندي الأزدي ملكي عُمان، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين"[٢]، وكانت كلُّ رسالة من هذه الرسائل تتضمن الدعوة إلى الإسلام قبل الحديث عن الحرب والجهاد. وقد وضَّح كتَّاب الرسائل في رسائلهم هدف الجهاد في الإسلام، وهو الانتصار للدين، وإعلاء رايته، يقول القاضي الفاضل عن هدف صلاح الدين من قتال الصليبيين:" ... وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظمى، ولا يُقاسي تلك البُؤسى إلا رجاء هذه النُّعمى، ولا يُناجز من استمطله في حربه، ... إلا لتكون الكلمة مجموعة، والدعوة إلى سامعها مرفوعة؛ فتكون كلمة الله هي العليا، ..."[٣].

كما بيَّن صاحب كتاب "مواد البيان" ضرورة الحث على الجهاد، حيث يقول:" الدّين ينتظم بأمرين: أحدهما الدعاء إليه والترغيب فيه، والثاني صيانة حوزته، وما دخل في مملكته، وكفّ أعدائه عن تنقّص أطرافه، والتغلّب على بلاده، ولهذا فرض الله الجهاد وأوجبه، وأكَّد الأمر فيه وشدّده، والسلطان محتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرُّق المخالفين إلى بعض الثغور، أو شن الغارة على أهل الإسلام، أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء، وصون حريم الملَّة، وحفظ نظام الدولة"[٤].

الأمور التي يجب أن يتصف بها كاتب رسائل الحرب:

يحظى كاتب رسائل الحرب بمنزلة كبيرة، لا تقل أهمية عن باقي الكتَّاب في ديوان الإنشاء، بل إنَّه قد يكون أهم منزلة من غيره من الكتَّاب، وذلك انطلاقاً من خصوصية هذه الرسائل وأهميتها، وقد ذكر علي بن خلف صاحب كتاب "مواد البيان": أنَّ لكاتب هذه الرسائل صفات خاصة يجب أن يتحلّى بها دون غيره من الكتَّاب في ديوان الإنشاء، وهي:

- أن يكون مسلماً عالماً بالقرآن، والسنة، وعارفاً بالفقه.
- أن يكون عارفاً باللغة العربية، وأيام العرب، وتاريخهم وأنسابهم، وعارفاً بالحساب، وقسمة الفيء والغنائم.
- أن يتصف بالصدق، والأمانة، والصبر، والنزاهة والبُعد عن الطمع.
- أن يكون حسن السيرة، وحسن المعاملة مع الآخرين، ليتمكن من حملهم على الحق.
- المعرفة بالخيل وأنواعها، وأوصافها المحمودة والمذمومة، وكذلك أصولها وأخلاقها.
- المعرفة بالأسلحة وأنواعها، والسيوف وجواهرها، والرماح وأجناسها، والقسيِّ والسهام والدروع، وغيرها من أدوات الحرب التي قد تُستخدم فيها.
- من المفضَّل أن يكون متأدِّباً بالفروسية، فمن عمل في السلاح، يعرف لمن يكتب، وكيف يخاطب [٥]. ومما لا شك فيه إنَّ توفّر هذه الصفات في كتَّاب رسائل الحرب يدلُّ على مدى الدّقة المتناهية التي كانت موجودة عند العرب، والمسلمين في دواوين الإنشاء ومن يعمل فيها.

كما بيَّن أيضاً الصّيغة التي تُكتب عليها تلك الرَّسائل، وهي [٦]:

- أن تُفتتح الرَّسالة بحمد الله على جميل صنعه، وعلى نعمة الإسلام، وعلى وعده بنصر أوليائه، وبالصّلاة على رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم –وذكر الجهاد فيه ونشر دينه.

---

١. الشيباني، محمد بن الحسن: السير الكبير، شرح الإمام محمد بن أبي سهل السرخسي، تحقيق وتعليق: محمد أبو زهرة ومصطفى زيد، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨م، ١/٥٧-٥٩.

٢. الخزاعي، علي بن محمد بن سعود: تخريج الدلالات السمعية، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص ١٩٥.

٣. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأميرية،١٩٦٣م، ٦/٤٩٨.

٤. ابن خلف، علي الكاتب: مواد البيان، تحقيق: د. حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ١٩٨٢م، ص٥١٤، وانظر القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/٢٤٩.

٥. انظر، ابن خلف، علي الكاتب: مواد البيان، ص ٨١-٨٣.

٦. انظر، المصدر نفسه، ص٥١٥-٥١٦.

- أن يخاطبهم بما يحمّسهم لنصرة الدين، واتّباع سبيل السلف الصالح في الجهاد، ونصر الله لهم، لثباتهم على عقيدتهم.
- أن يحضّهم على التمسّك بالصبر، والشجاعة، وبذل النفس من أجل هذا الدين، ويبيّن لهم فضائل الجهاد، والثواب العظيم المدّخر لهم في آخرتهم، وغيره من الأمور التي تشجّعهم وتجعلهم يقدمون على الجهاد مخلصين متيقّنين من نصر الله لهم.

القسم الأول: أنواع الرّسائل الحربيَّة في كتاب "صبح الأعشى":

تنوّعت الرسائل والمخاطبات الحربيَّة في كتاب "صبح الأعشى" بتنوّع مناسباتها، وتطورت تطوراً ملحوظاً عبر عقود الدولة الإسلامية، وقد جاءت في أشكال عدّة، منها: الرسائل الصادرة إلى أمراء السرايا، وكتب الحث على الجهاد، وكتب الفتوحات واسترجاع المعاقل والحصون، ووصف المعارك والانتصارات وحركة الجيوش، والأسلحة والآلات الحربيَّة، ورسائل الاستنجاد، والمكاتبات بالاعتذار، والتهديد وذم المهزوم وتقريعه والتهكّم به، وسنعرض فيما يأتي لكلِّ نوعٍ من هذه الرَّسائل:

الرسائل الصَّادرة إلى أمراء السَّرايا:

وتُرسل مثل هذه الرسائل من الخليفة إلى العمَّال، وأمراء السرايا والقادة، أو العكس، من القادة إلى الخليفة، إذ يتم التشاور، وأخذ الرأي، والاستفسار عمّا يعرض من أمور قد تواجههم، كبيان الوضع الحربي على جبهاتهم، ومن ذلك كتاب الحجاج بن يوسف إلى المهلب بن أبي صُفرة، وهو يومئذ نائب الحجاج على بعض الأعمال والحروب:" أما بعدُ، فإنَّك تتراخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلي ويرجعون بعذرك، وذلك أنك تُمْسك حتى تبرأ الجراح وتُنسى القتلى ويَجِمَّ الناس ... وليس للقوم إلاّ ما معهم، ولا يُدرك الوجيف بالدَّبيب، ولا الظّفر بالتعذير" [١]، ومن الكتب الحربية أيضاً في هذا المجال كتب التجسّس والعيون، وهي موجَّهة إلى أمراء السرايا، أو قادة المعارك، أو المكلَّفين بأمور الاستطلاع، وهي رسائل معروفة منذ قيام الدولة الإسلامية، وما أمر حاطب بن بلتعة مع الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم– بسرٍّ، وكذا كان يفعل الرسول– صلَّى الله عليه وسلَّم – قبل غزواته، ومن هذا القبيل ما روي عن رسالة العبَّاس بن عبد المطلب– رضي الله عنه – إلى رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – يحذّره من قدوم قريش عليه والتي جاءت في سطر واحد "اصنع ما كنت صانعاً إذا وردوا عليك، وتقدَّم في استعداد التأهب"[٢]، فهذا مثال واضح على هذا النّوع من الرسائل الصادرة إلى أمراء السرايا من قبل القادة، وكذلك الأمر من العيون إلى القادة العسكريين، ولا نريد التقصي والاستطالة في هذا النوع لعدم اتساع المجال في رصد شواهد أخرى على النوع نفسه من الرسائل.

١– رسائل الحث على الجهاد:

يهدف هذا النوع من الرسائل إلى بعث الحمية والهمة في نفوس المُرسَل إليهم، وتذكيرهم بالهدف الأسمى الذي يجاهدون من أجله، وهو نصرة الدين الإسلامي وإعلاء كلمة الله تعالى، وإلى هذا يشير صاحب "مواد البيان" حيث يرى أنَّ الدين ينتظم بالدعاء إليه والترغيب فيه، وينتظم كذلك بصيانة حوزته، وما دخل في مملكته، وكف أعدائه عن تنقّص أطرافه، والتغلب على بلاده، ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه وأكَّد الأمر فيه وشدّده، والسلطان محتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرُّق المخالفين إلى بعض الثغور، أو شن الغارة على أهل الإسلام، أن يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء، وصون حريم الملّة، وحفظ نظام الدولة [٣]، وقد كان للتحريض على الجهاد في تلك الرسائل أهداف أخرى، "منها بيان أنَّ الجهاد فريضة من الله تعالى على المسلمين، ومنها بيان ثواب الشهادة ومنزلة الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة، ومنها الحث على طاعة الله ورسوله – صلَّى الله عليه وسلَّم – في المبادرة إلى الجهاد، ومنها الترغيب في ثمرة الفتح والغنيمة في الدنيا،.... ومنها غرس الطمأنينة في نفوس الجند، ومنها ترسيخ الثقة بالنصر على الأعداء"[٤]، فالهدف من هذه الرسائل واضح وهو الدفاع عن الإسلام وأرضه، وكذلك بث الحماسة في نفوس الجنود المدافعين عن بلاد المسلمين.

ومن هذه الرَّسائل مكاتبة السلطان إلى بعض نواب الثغور، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي:" أصدرناها ومنادي النصر قد أعلن بيا خيل الله اركبي، ويا ملائكة الرحمن اصحبي، ويا وفود الظفر والتأييد اقربي ...، والجيوش قد كاثرت النجوم أعدادُها، وسار بها للهجوم على أعداء الله من الملائكة الكرام أمدادُها، والنفوس قد أضرمت الحميّة للدين نار غضبها، ... ثقةً من وعد الله وتمسُّكاً منه باليقين، وتحققاً أنَّ الله ينصر من ينصره والعاقبة للمتقين"[٥].

ويتضح من هذه الرسائل أنَّ فيها تذكيراً للمجاهدين بوعد الله سبحانه وتعالى بنصر من ينصره، ومدِّه بجنود من عنده، كما يتضح أنَّ هدفها هو إعلاء كلمة الله ونصرة دينه والدفاع عن حمى الإسلام، وكذلك تحذير المجاهدين من الوقوع تحت الذلّ والهوان من الأعداء، وأن ينزلوا بهم الهزائم وينكّسوا صليبهم ولا يخافون منهم، ومن ذلك إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي: "... أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطّرابُلُسيّة أيّد الله تعالى عزائمهم القاهرة، وأذلّ بسيوفهم

[١]. القلقشندي: صبح الأعشى،٥٥٩/٦.

[٢]. قمحية، جابر: أدب الرسائل في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٠٠.

[٣]. انظر، ابن خلف، علي الكاتب: مواد البيان، ص ٥١٤.

[٤]. المقداد، محمود: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص١٠٦–١٠٧.

[٥]. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٤٨/٨–٢٤٩.

الطائفة الكافرة، ... وأن يجيبوا داعي الدين، ويكفّوا أيدي المعتدين، ويُفُوّقوا سهامهم، ويجعلوا التقوى أمامهم،... ويعتمدوا على القريب المجيب، ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب، وينافسوا في أمر الآخرة ويَدَعُوا الدنيا، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، ... واهتمّوا بما يُعلي كلمة الإسلام والسلام، فليرفعنَّكم الله إلى منازل العزِّ والتمييز " وَلَيَنْصُرَنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز""[١].

١- رسائل الفتوحات واسترجاع المعاقل والحصون:

وهي الرسائل التي كانت تُكتب في انتصارات الجيوش وتحقيق الفتوحات والتبشير بها، ومن ذلك انتصار المسلمين وفتحهم بيت المقدس.

فقد كان للانتصارات التي حققها المسلمون على أعدائهم رنّة فرح في قلوب المسلمين، فتبارت أقلام الكتَّاب في تدبيج الرسائل التي تهنئ المسلمين من خلفاء وأمراء وتصف لهم عظمة الفتح وجلاله، فجاءت المعاني التي تحدّث الكتَّاب عنها في رسائلهم مستمدة من مبادئ الإسلام، ومفهوم الجهاد: فالنصر في الإسلام نعمة من الله، يجب الإكثار من ذكرها والتحدّث عنها، وهي نعمة تستحق الشكر والعرفان له عز وجل، ولهذا أكثر كتَّاب الرسائل من ترديد هذا المعنى في رسائلهم، ومثال ذلك ما قاله القاضي الفاضل عند فتح بيت المقدس:" ...والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنَّها بحر للأقلام فيه سَبْحٌ طويل، ولُطْفُ الحق للشكر فيه عبءٌ ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله في إعادة شكره رضاً، وللنعمة الراهنة به دوام لا يُقال معه هذا مضى ..."[٢]، ومن ذلك أيضاً ما كتبه خالد بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان بانتصاره على الخوارج "ثـمَّ أنَّ الله أنـزل نصره على المؤمنين والمسلمين، وضرب الله وجوه أعدائه فاتّبعهم المسلمون يقتلونهم، ولا يمنعون ولا يمتنعون، وأفاء الله ما في عسكرهم على المسلمين، والله – إن شاء– مهلكهم ومستأصلهم"[٣].

وقد أكثر الكتَّاب في رسائلهم من التحدّث عن مظاهر انتصار الدين، وانهزام الكفار والملحدين، فأكثروا من الإشارة إلى نصر الله لهم، والقضاء على الكفار، ومن ذلك رسالة المهلب بن أبي صفرة إلى الحجَّاج بن يوسف في فتح الأزارقة من الخوارج، حيث قال:" أما بعدُ، فالحمد لله الذي لا تنقطع مواد نعمه عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعَدُوَّنا كُنَّا على حال يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا، ويسوءهم منّا أكثر مما يسرُّهم، ولم يزل الله جلَّ ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزّنا ويذلّهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويمحّصنا ويمحقهم، حتّى بلغ الكتاب أجله."فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين"[٤] .

ولم يكن هذا النمط من الرسائل موجوداً في المشرق حسب، وإنّما نجده في المغرب الإسلاميّ والأندلس، إذ كان القادة والأمراء يبعثون برسائل ليخبروا فيها عن انتصاراتهم، واستعادة معاقلهم، وفي ذلك رسائل كثيرة لا تقلُّ عمّا في المشرق، نذكر منها ما كتبه المعتمد ابن عبَّاد إلى المعتصم بن صُمَادح يخبره باستعادته حصن" لبيط" يقول:" .... ثم صوبحوا يوم كذا بالحرب، وكوفحوا إلى آخرة بالغرب، بالطّعن والضرب، وانصرفوا ولاذوا بالانجحار، واحتجزوا بالجدران والأسوار، ولم يكن واحد منهم يثور إلاّ إلى حِمام، ولا يبدي جارحة إلا إلى سهمٍ رامٍ"[٥].

ومن معاني الجهاد الثابتة في الإسلام معنى مشاركة الملائكة للمجاهدين في المعارك حين يصدقون الله في جهادهم، قال العماد في واحدة من رسائله:"..... وأعان الله بإنزال الملائكة والروح وأتى بهذا النصر الممنوح"[٦].

وأكثر الكتَّاب في رسائلهم من التحدّث عن مظاهر انتصار الدين، وانهزام الكفار والملحدين، فأكثروا من الإشارة إلى عودة الآذان إلى البلاد المفتوحة وإقامة الصلاة، وجلوس الفقهاء والعلماء في المساجد للفتوى والتدريس، وارتفاع أصوات الخطباء على المنابر، وأشاروا في رسائلهم إلى اختفاء أصوات النواقيس، وإلى خروج الرهبان والقساوسة، واختفائهم من المدن الإسلامية المفتوحة، وقارن الكتَّاب بين حال المدن المفتوحة قبل الفتح وبعده، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل في كتاب من إنشائه بفتح القدس الشريف، وإنقاذه من يد الكفر سنة (٥٨٣هـ)، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب:"ويحط من منائر جوامعها صلبانًا ويرفع أذانًا، ويبدِّل المذابح منابر، والكنائس مساجد، ويُبَوِّئ بعد أهل الصُّلبان أهل القرآن للذبِّ عن دين الله مقاعد"[٧].

٢- رسائل وصف المعارك والانتصارات وحركة الجيوش:

واكب فن الرسائل انتصارات المسلمين على أعدائهم ووصفها وبشَّر بها، ورسم الكتَّاب في رسائلهم صورة وافية لمعارك المسلمين مع أعدائهم، وأوردوا كثيراً من دقائق تلك المعارك وتفاصيلها، وحدَّدوا زمانها ومكانها، وبيَّنوا ما أسفرت عنه تلك المعارك من نتائج، وما وقع في صفوف الأعداء من خسائر، ومن الانتصارات والفتوح التي

---

١. القلقشندي: صبح الأعشى،٦٨/٢٥٠-٢٥١.

٢. المصدر نفسه،٦/٤٩٧، ٨/٢٨٢.

٣. محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص٢٩٩.

٤. القلقشندي: صبح الأعشى،٨/٢٧٧-٢٧٨.

٥. القيسي، فايز عبد النبي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٩م، ص١٩٢.

٦. أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، ط ٣، ١٩٧٤م،١/١٢٤.

٧. القلقشندي: صبح الأعشى، ٨/٢٨٦.

وصفتها رسائل الجهاد معركة حطين، وفتح بيت المقدس وعكا وغيرها، هذا في المشرق، أمَّا في المغرب العربيّ والأندلس، فقد أخذت الرسائل في وصف القلاع والحصون منحىً آخر، إذ كان الأدباء يكتبون رسائل في المفاخرة في المعاقل، ومن ذلك ما قاله "الشقندي" في المفاخرة بجيان " وأمَّا جيان فإنَّها لبلاد الأندلس قلعة، إذ هي أكثرها زرعاً، وأصرمها أبطالاً وأعظمها منعة، وكم رامها من عساكر النصارى عند فترات الفتن، فرأوها أبعد عن العيون، وأعز منالاً من بيض الأنوق"[١].

ومما يذكر أنَّ هذه الرسائل وصفت المعارك وصفاً تفصيلياً، وتتبعت خطواتها، ومراحلها، والأماكن التي مرَّ بها الجيش وأشارت إلى نهاياتها ونتائجها، ومن هذه الرسائل رسالة أنشأها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بفتح الملك الظاهر لقَيْساريَّة من بلاد الروم، واقتلاعها من أيدي التتار واستيلائه على مُلْكها، إذ يصف الكاتب في هذه الرسالة سير الجيوش الإسلامية، فيقول:" وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادّراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم، ... فسرنا في جبالٍ نشتهي فيها سُلوك الأرض، وأودية تَهلك الأشواط فيها إذا مُلئت الفروج من الركض، نزور دياراً ما نحبُّ مغناها، ولا نعرف أقصاها من أدناها،.... ومررنا على مدينة دَلُوك ... حتى وصلنا الحدث الحمراء المسماة الآن بكينوك ومعناها المُحْرَقَة..."[٢].

وكما كانت الرَّسائل تصف المعارك وصفاً دقيقاً، فإنَّها وصفت أيضاً يقظة المسلمين واستعدادهم للمعركة، واستطاعت أن ترسم صورة واضحة المعالم للقائد المسلم، وقد شرع في تثبيت الجيش وتربيته وتجهيزه للقتال، وحثّه على الصبر والمصابرة، والاجتماع عند المصادمة، وأخذ الكاتب يصوّر مشاهد المعركة الحقيقية مثيراً المشاعر والعواطف، حيث يقول:" فانصبّت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبَطلت الخِيلَة منهم ونُفِي الحيل، فشمّروا عن السواعد، ووقفوا وقفة رجل واحد"[٣].

كما رسم الكتَّاب صورةً حيَّةً للسلطان المسلم وهو يطارد أعداءه، ويسرف في قتلهم وتمزيق أجسادهم، ووصفوا القادة المعاونين له وما يتميزون به من قوة وعزم على تحقيق النصر، كذلك بين الكتَّاب تأييد الله ونصره للمسلمين وتأييده لهم بجنود من الملائكة:" فعندما شاهدوا نَجْد الملائكة، وتحقّقوا أنَّ نفوسهم هالكة، أخلدت فرقةٌ منهم إلى الأرض فقاتلت، ..."[٤].

ومِمَّا تصفه هذه الرسائل هزيمة الأعداء المخذولين، إذ صوّرت فلولهم الهاربة، والمسلمون يتبعونهم قتلاً وأسراً "وأصبح الأعداء لا تُرى إلا أشلاؤهم، ولا تُبصر إلا أعياؤهم، كأنَّما جَزَرُ أجسادهم جرائز يتخلّلها من الدماء السيل، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكرٌ تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل"[٥].

وبعد انجلاء المعركة، وتحقيق النصر المبين، وهزيمة الأعداء جدَّ السلطان وجنوده في العودة منصورين، وقد استقبلهم الناس بالفرح والسرور والتهاني، "وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنِّؤُونه، وعلى كفِّه الشريف يقبِّلونه، وبعد ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية، وذوو المراتب من أصحاب العمائم"[٦].

وممّا لا شك فيه إنَّ هذه الرَّسائل استوعبت وصف القادة المسلمين وجُندهم في حالة النصر، كما استوعبت وصف جيوش الأعداء وقادتها عند انهزامهم، وصوّرت حركات القادة والجيوش، وملاقاة الأعداء وإيقاع الهزيمة بهم تصويراً دقيقاً، فقد صوّرت المعركة وقد تناثرت الأشلاء وتطايرت الرؤوس، وفلول المهزومين وأجساد القتلى، ولم تغفل صورة القائد المسلم الشجاع الذي يدافع عن الإسلام ويقف في مقدمة الصفوف، ويوصي جنده بالصبر والتضحية والثبات.

٣- وصف الأسلحة والآلات الحربيَّة:

تنوّعت أسلحة المقاتلين في الحروب مع أعدائهم من تتار وصليبيين، واستعملوا فيها الأسلحة التقليدية المعروفة منذ القدم، كالسيوف والرماح والسهام والنبال والمجانيق، وقد أشارت الرسائل إلى هذه الأسلحة وحامليها الذين اختصوا بها، حتى أُطلقت عليهم أسماؤها، ومن الرسائل التي ذكرت هذه الأسلحة رسالة للقاضي الفاضل يقول فيها:" فإنَّه قتلهم بالسيوف الأفلاق، والرماح الأكسار،... وكم فارسيةٍ ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فاها، فإذا فوها قد نقش القِرْنَ على بُعْد المسافة فافترسه،..."[٧].

واستعمل المسلمون كوسات نحاسية، كانت تستعمل لتجميع الجنود، أو تدقُّ بها إشارة البدء للقتال، فقد جاء في رسالة:"... ولكؤوس الحرب مديرين ..."[٨].

وكان من شدة فتنتهم بآلات الحرب أن وصفوها أوصافاً خاصة، وشبّهوها تشبيهات جميلة كقولهم في حمل الفارس الترس: " وحمل بيده ترساً لا يزال به السيف ينكص على عقبه ويرد، وما زاد على أن

---

١. الكساسبة، رضا عبدالغني: النثر الفني في عصر الموحدين، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٤م، ص٧٨.
٢. القلقشندي: صبح الأعشى،١٤/١٤١-١٤٢.
٣. المصدر نفسه،١٤/١٤٥.
٤. المصدر نفسه،١٤/١٤٦.
٥. القلقشندي: صبح الأعشى،١٤/١٤٨.
٦. المصدر نفسه،١٤/١٥٥.
٧. المصدر نفسه،٦/٤٩٩-٥٠٠.
٨. المصدر نفسه،٧/٢٢.

حصل منه على عجبه، كأنَّما صُنع لمدافعة الأجل، أو صُنع ليحمل عن الضارب فضيحة ما يلقاه من الخجل، ..."[1].

١- رسائل الاستنجاد:

كثرت الرَّسائل التي يستنجد أصحابها بالمسلمين في كلِّ مكان، وتطلب منهم إرسال النجدات البشرية والمادية للمجاهدين في بلاد الشام ومصر، حيث كانت تتعرض للغزو المغولي، والغزو الصليبي، وقد ظهرت هذه الرسائل منذ بداية الدولة الإسلامية، فهذا أبو بكر الصديق يكتب برسالة إلى يزيد بن أبي سفيان، يقول:" وأنا مع ذلك ممدّك بالرجال في إثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان إن شاء الله"[2]. وأرسل صلاح الدين إلى أمراء الأطراف طالباً إنجاده بالعساكر والمال والسفن والأسلحة، وكل ما يستطيعون تقديمه، فأرسل إلى الخليفة العباسي في بغداد وإلى سلطان اليمن، وإلى ملك المغرب يستنجدهم بالسلاح والأفراد.[3]

وكانت هذه الرسائل تصف الصليبيين وقوتهم، وكثرة الإمدادات التي تأتيهم من الغرب، كما وصفتهم بالغيرة على دينهم، وهجرهم لبلادهم، وأهلهم في سبيل عقيدتهم الباطلة، ولم تمنعهم طول المسافات، ولا كثرة المشاق من القدوم لحرب المسلمين والاستيلاء على أراضيهم ومقدساتهم، يقول العماد في رسالة إلى الخليفة العباسي:" ... وقد بلي الإسلام منهم بقوم استطابوا الموت، واستجابوا للصوت، وفارقوا المحبوبين: الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين: الأهل والديار، وركبوا اللجج، ووهبوا المهج ..."[4].

ولجأت هذه الرسائل إلى إثارة المُرسَل إليه، بتصوير مبلغ الحاجة إلى العون بألفاظ تثير العاطفة والوجدان، وتصوّر الشكوى والحزن والخطر على الدين والأرض والإنسان، ومن ذلك ما جاء في رسالة للخليفة العباسي:" ... فإن لم يشتكِ الدين إلى ناصره .... فإلى من يُشتكى البث، وعند من يتفرج بالنفث؟ ..."[5].

وجاء في رسالة إلى سلطان اليمن:"... وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه، فإنّها مكان الاستغضاب والاستثارة"[6].

وكانت هذه الرسائل تذكّر المُرسَل إليه أنَّ إرسال النجدات إلى المجاهدين واجب عليه نحو الإسلام والمسلمين، وهي طاعة لله وجهاد في سبيله، يقول القاضي الفاضل في رسالة إلى سلطان اليمن:"....

فالبدار إلى الجنة البدار، والمسارعة إلى الجنة، فإنَّها لا تُنال إلا بإيقاد نار الحرب على أهل النار ..."[7].

وحاولت هذه الرسائل بعث العزيمة والحمية في نفوس المُرسَل إليهم من حكام المسلمين، بتذكيرهم أنَّ هؤلاء المجاهدين يقومون بواجب الجهاد نيابة عن المسلمين جميعاً.

كما كانت هذه الرَّسائل تقلّل من شأن الأعداء وتؤكّد قدرة المسلمين على دحرهم، يقول القاضي الفاضل في رسالته السابقة:" ... وما هم بحمد الله في حصن يأويهم، بل في سجن يحويهم، بل هم أُسارى وإن كانوا طلقاء، وأموات وإن كانوا أحياء، قال تعالى:" فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا"[8].

٢- رسائل الاعتذار للسلطان عن الهزيمة:

عملت الرسائل الحربية على التقليل من شأن الهزائم التي أُصيب بها المسلمون، إذ كانت تعزوها إلى قضاء الله وقدره، وتدعو إلى التسليم به، وتحاول أن تبعد اليأس والقنوط عن المسلمين، وتثبّت عزائمهم وقواهم فالواجب يقتضي الثقة بنصر الله، وصَمَتَ الكتَّاب عن التحدّث عن جنود المسلمين في الهزائم، وعن الهزائم ذاتها، واكتفوا بالإشارة إليها، والتقليل من شأنها.

ويظهر هذا الملمح في رسائل الاعتذار في نماذج متعددة من مثل:" الحمد لله الذي ساس الأمور بحكمته، وأبان فيها مواقع قدرته، وسلك فيها طريق مشيئته، وصرّفها على ما رآه عدلاً بين العباد في أقسام نعمته ومحنته، وأحوال بلواه وعافيته، وجعل الأيام فيهم نُوَبا، والأحوال بينهم عُقَبا..."[9]، ومثله ما أنشأه أحمد بن سعيد، إذ يقول:" أحكام الله جلَّ جلاله جارية على سُبُلٍ جامعة لوجوه الحكمة، منتظمة لأسباب الصلاح والمعدلة، ... ثم إنَّ لله جلَّ جلاله عادة في الجيشين المتحاربين والحزبين المتحاكمين: من عباده المؤمنين، وأضدادهم المفسدين الملحدين، في المداولة بينهما، والمعاقبة بين الفئتين منهما في العجز والظهور، والوفاء والقصور، والمعافاة والامتحان، والنصر والخذلان..."[10]، وهذا النوع من المكاتبات شائع بين الكتَّاب، وللشيخ شهاب الدين محمود الحلبي تفننات كثيرة فيه، منها ما أنشأه فيمن هُزِمَ هو وجيشه، إذ يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده، ويحث على معاودة عدوه والطلب بثأره، ومن ذلك:" هذه المكاتبة إلى فلان: لا زال مأمون الغِرَّة مأمول الكرَّة مجتنياً حلو الظفر من أكمام تلك المَرَّة المُرَّة، راجياً من عواقب الصبر، أن يُسفر له مساء تلك المساءة عن صبح المسرّة، واثقاً من عوائد نصر الله بإعادته، ومن معه في القوة والاستظهار كما بدأهم أول مرة"[11] . كما دافع كتَّاب الرَّسائل عن الحكَّام، وحاولوا تبرير بعض الهزائم التي لحقت المسلمين، بأنَّها

---

[1]. ابن فضل الله العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: د.سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١٩٩٢،١م، ص ٣٠٣.

[2]. المقداد، محمود: تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص ١١٤.

[3]. القلقشندي: صبح الأعشى،٧ / ١٢٦-١٢٨.

[4]. المصدر نفسه، ٧/ ١٢٧ .

[5]. المصدر نفسه، ٧/ ١٢٩.

[6]. المصدر نفسه، ٢٧/٧.

[7]. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٥/٧.

[8]. المصدر نفسه،٢٤/٧.

[9]. المصدر نفسه،٢٩١/٨.

[10]. المصدر نفسه،٢٩٣/٨-٢٩٤.

[11]. القلقشندي: صبح الأعشى، ٢٩٤/٨.

تقصير من الجند وخيانة منهم، وليس للحاكم أو القائد ذنب في ذلك، ومثال ذلك ما كتبه خالد بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان في هزيمة أخيه عبد العزيز أمام الأزارقة، حيث يقول:" إني بعثتُ عبد العزيز بن عبد الله في طلب الخوارج، وأنهم لقوه بفارس، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عبد العزيز لمّا انهزم عنه الناس، فأحببتُ أن أعلم أمير المؤمنين ذلك ليأتيني رأيه وأمره"[١]، ومن ذلك أيضاً ما كتبه شهاب الدين محمود الحلبي على لسان المهزومين يتضمن الاعتذار، ويتوعَّد بأخذ الثأر:" هذه المكاتبة إلى فلان: أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسرُّه، وبلِّغه عنَّا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصِّفاح، وألسنة الرماح سِرُّه، وأراه من عواقب صُنعه الجميل بنا ما يتحقَّق به أنَّ كسوف الشمس لا ينال طلعتها، وإن سرار القمر لا يضُرُّه .... وقد لَمَّ الخادم شَعَثَ رجاله، وضَمَّ فرقهم بذخائر ماله، وأمدهم بنفقات أصلحت أحوالهم، وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم،... واعتصموا بعون الله، وتأييده لا بقوة جَلَدِهم ولا بحدِّة أسيافهم، وسَيُعْجِلُون العدو – إن شاء الله تعالى – عن اندمال جراحه، ويتعجّلون إليه بجيوش تسوءه طلائعها في مسائه، وتصبِّحه كتائبها في صباحه، والله تعالى لا يَكِلُنا إلى جَلَدِنا، ولا ينزع أعنَّة نصره من يدنا"[٢]، فها هو كاتب الرسالة يعتذر عن الهزيمة التي حلَّت به وبجنوده ويبيّن أنَّه قد أصلح حال الجيش، وأنَّه سوف يباغت عدوه وينزل به هزيمة نكراء متوكلاً على الله سبحانه وتعالى، وطالباً عونه ونصرته.

ومن الملاحظ في هذه الرسائل أن كتَّابها يبيّنون أسباب الهزيمة، وهي الاغترار بالنفس، والقوة من قبل جنود المسلمين، فيرفعون بذلك من معنويات الجند والقادة، ويؤكّدون إنَّها كبوة جواد، وأنَّهم سوف ينتصرون على أعدائهم إن شاء الله تعالى، وإنَّ الله وعدهم بالنصر إن هم نصروه، كما يدعو كتَّاب هذه الرسائل القادة والجند إلى الاستعداد والأخذ بالثأر لهذه الهزيمة، وتحرير بلاد المسلمين، ومقدساتهم من أيدي الغزاة الطامعين.

٣- رسائل التهديد وذم المهزوم وتقريعه والتهكّم به:

وهذا النوع من الرسائل قليل الوقوع إذ إنَّه يوجه إلى العدو قبل وقوع المعركة للتهديد والوعيد، وبعد المعركة للذم والتقريع، ومن رسائل التهديد ما كتبه هارون الرشيد إلى "نقفور" ملك الروم ردّاً على رسالة وجهها إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه، لا ما تسمعه"[٣]، أمَّا بعد المعركة فإنَّه يتعرَّض لبيان حال المهزوم وما ظهر عليه من القهر والهزيمة، والاستيلاء على بلاده وأمواله وأسر جنوده وسبي نسائه واسترقاقهن، بالإضافة إلى الألم الذي يعتصر قلبه نتيجة لهذه الهزيمة، ومن ذلك رسالة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر إلى البولس بيمند ملك الفرنج، المستولي على طرابلس من الشام، وأنطاكية من بلاد العواصم حين غزاه الملك في طرابلس، ثم قصد إنطاكية فأخذها منه:" ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عُقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر وهدم الأعمار، وكيف كُنِسَتْ تلك الكنائس من على بساط الأرض، ودارت الدوائر على كلِّ دائر،...، وكيف نُهِبَتْ لك ولرعيتك الأموال، والحريم، والأولاد، والحواشي ..."[٤]، فمن خلال هذه الرسالة يظهر لنا ما فيها من ذم، وتقريع للمهزوم، وبيان ما حلَّ به وببلاده من تدمير، وبنساء قومه من سبي، وبرجاله من قتل وأسر.

وقد بيَّنت هذه الرسائل جزاء هذا المعتدي على بلاد المسلمين، وإنَّ هذا التأديب له ولغيره، كما تعرَّضت إلى ذم بعض القادة المسلمين، الذين هُزِموا من أعدائهم، ومثال ذلك الرسالة التي أنشأها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وفيها:"هذه المكاتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلّته، وأقامه من حُفرة ذلّته، وتجاوز له عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلّته، بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها العدو، بجمعٍ قليلٍ غناؤه، ضعيف بناؤه، ...، ويأتمّون منه بمقدم يرى الواحد من عدوّه كألف، ويتسرعون منه وراء مقدام يمشي إلى الزحف ولكن إلى خلف،...، فإن كانت له حمية فستظهر آثارها، أو أريحيّة فستشب نارها، أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية، وتبعثه على طلب غايتين: إما شهادة مريحة أو حياة هنيّة"[٥]، فهذه الرسالة توبّخ المهزوم والفار من وجه العدو وتذمّه، وتطلب أن يكون الاستعداد لمواجهة العدو استعداداً كبيراً دون تهاون أو تخاذل، لتكون الغلبة للمسلمين، وأن لا يطمع بهم عدوهم، فتصبح بلاد المسلمين نهباً للأعداء من الشرق والغرب.

كما كانت هناك بعض الرسائل التي تذم المتخاذلين المهادنين للفرنج من أمراء المناطق العربية في الموصل وحلب ودمشق، فقد ساء صلاح الدين ما رآه من بعض قادة دمشق الذين يهادنون الصليبيين، ويدفعون لهم الأموال، ويطلقون أسرى كانوا بيد المسلمين، كل ذلك لأنَّهم ضعفوا عن مقاومة الصليبيين الذين اغتنموا فرصة موت نور الدين، واختلاف أمراء المسلمين حول ولده الملك الصالح إسماعيل، فهاجموا بانياس وهددوا بالاستيلاء على دمشق، وأجبروا أمراءها على مصالحتهم، فقد حذَّر صلاح الدين في رسالة إلى أهل دمشق من العدو الصليبي، ودعاهم إلى رفض الصلح، فقال:" .... وإن العدو طالب لا يفضل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصة، ومجدٌّ لا

---

١. محمد حمادة: الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي، ص ٢٩٧.

٢. القلقشندي: صبح الأعشى، ٢٩٧/٨-٢٩٨.

٣. صالح، محمود عبد الرحيم: فنون النثر في الأدب العباسي، وزارة الثقافة، عمان، ط١، ١٩٩٤، ص٨٧.

٤. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٩٩/٨-٣٠٠.

٥. المصدر نفسه،٣٠٢/٨-٣٠٣.

يميل إلى الرخصة، فإن كانت الجماعة ساخطين، فيظهروا إمارات السخط والتغيير..."[١].

وذمَّ صلاح الدين أمراء الموصل وحلب الذين هادنوا الصليبيين، واستعانوا بهم وأكَّد حرصه على مصالح المسلمين، وقال في رسالة إلى الخليفة العباسي:" ... وقد علم الله إنَّا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام راغبون، ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولاً، وكالأنعام أو أضل سبيلاً، إنَّ بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهم أكثر من الأنفاس ..."[٢]. هذه الرسائل تُبيّن حال المسلمين من الفرقة والشتات والضعف والهوان، ولكن القائد صلاح الدين استطاع أن يوحّدهم، فقد حارب الغزاة الصليبيين واستطاع أن يهزمهم في معارك كثيرة وخلَّص بلاد المسلمين من شرورهم.

القسم الثاني: الخصائص الفنيَّة لرسائل الحرب

١-الطريقة الفاضليَّة

امتازت رسائل الحرب بميزات وخصائص النثر الفني في تلك العصور، حيث كان كتَّاب النثر الفني في ذلك العصر ينهجون نهج القاضي الفاضل في الإنشاء، الذي تميّزت طريقته بسمات فنية خاصة، مثل: الإكثار من السجع، والطباق، والجناس، والتورية، والاقتباس من آيات القرآن الكريم وحلّها في الكتابة، كما لو كانت من أصلها، والإكثار من تضمين الأشعار والاستشهاد بها، ونثرها في الرسائل، إضافة إلى الإكثار من الأمثال المنظومة والمنثورة، والوصايا والأقوال المأثورة والحكم، ومن خصائص الطريقة الفاضليَّة أيضاً الاعتماد على التصوير، وحشد الصور المتنوعة من تشبيهات واستعارات وكنايات.

برع القاضي الفاضل في إنشاء الرسائل، ونجحت طريقته في الإنشاء، لسعة ثقافته ووفرة محصوله اللغوي والأدبي والفكري، مما جنَّبه التكلّف والتكرار[٣]، ومما يؤكد براعته ويدلُّ عليها ما ذكره عنه أبو شامة المقدسي، حيث قال:" ... فما كرر دعاءً ذكره في مكاتبته، ولا ردد لفظاً في مخاطبته، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة"[٤]. ونمثّل على ذلك من رسالة له للسلطان صلاح الدين بفتح القدس الشريف:" ... وتقلَّص ظلُّ رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريباً فهو الآن في وطن..."[٥].

وحذا كثير من كتَّاب رسائل الحرب حذو القاضي الفاضل في إنشائه، غير أنهم لم يبلغوا شأوه، إذ كانت صنعة بعضهم ثقيلة، ومتكلّفة، كما هو الحال في كثير من إنشاء العماد الأصفهاني، ورسائل ابن الأثير [٦].

٢-المحسنات البديعيَّة في رسائل الحرب

أكثر كتَّاب رسائل الحرب من المحسنات البديعية من سجع، وجناس، وطباق، وتورية وغير ذلك، وشواهد هذه المحسنات كثيرة يستطيع القارئ أن يلحظها بسهولة ويسر، ومن ذلك هذا النص للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي:" ...فكأنَّه بالعدو وقد زال طَمَعُه، وزاد ظَلْعُه، وذَمَّ عُقبى مسيره، وتحقَّق سوء منقلبه ومصيره..."[٧] فالجناس- وكذلك السجع- واضح في هذا النص، شأنه شأن المحسنات البديعية الأخرى كالطباق الذي أكثرت من إيراده رسائل الحرب، يقول ابن الأثير:" ... ولما فصلت الحروب حاز المسلمون من الغنائم أوقاراً، ومحو من الصحائف أوزاراً، فغدوا ثقالاً من الأسلاب، خفافاً مما خط في الكتاب، وكان الخادم نذر دم طاغية الكرك، وهو ممن أثخن في بلاد الإسلام قتلاً وأسراً، وسلفت له وقائع كلها ينطلق عليها اسم الكبرى، ولا يقال فيه الصغرى..."[٨].

فقد طابق ابن الأثير في النص السابق بين (أوقاراً وأوزاراً، وحاز ومحا، وثقالاً وخفافاً، وقتلاً وأسراً، وكبرى وصغرى).

وعني كتاب رسائل الجهاد بالتورية، فأكثر ابن عبد الظاهر منها في رسائله، ومن ذلك ما جاء في رسالته إلى بيمند ملك إنطاكية، بعد أن استولى عليها بيبرس:"... وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي إلى ملكنا جارية ..."، فقد وارى ابن عبد الظاهر في كلمتي: "جارية" و"ماشية".

وعلى الرغم من أنَّ رسائل الجهاد قد غلب عليها التحسين اللفظي والبديعي، وهو المنهج الذي كان سائداً في عصر الحروب الصليبية، إلاّ أنَّ بعض الكتَّاب كان في بعض الرسائل قليل العناية بالمحسنات البديعية، وكان همُّه في تلك الرسائل أن يعبّر عن معانيه ويوضّحها دونما تكلّف للبديع، خاصة في الأوقات العسكريَّة الحرجة على المسلمين، وعلى سبيل المثال، فإنَّ القاضي الفاضل كان أقلَّ عناية بالمحسنات البديعية في مجموعة من الرسائل التي أرسلها إلى صلاح الدين أثناء حصار الصليبيين مدينة عكا، ومرابطة صلاح الدين في مواجهة جيوشهم سنة(٥٨٥- ٥٨٧)هـ [٩]، وكان بعض الكتَّاب قد آثروا أسلوب الترسل والتحلّل من كثرة المحسنات البديعية.

---

١. المقدسي، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ٥٩٤/١.

٢. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٤/٢.

٣. بدوي، أحمد: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م، ص ٣٥٩.

٤. انظر، المقدسي، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ٢٤٢/٢.

٥. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٨٢/٨.

٦. انظر، ابن الأثير، ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، تحقيق نوري القيسي، بغداد، دار الكتب، ١٩٩٢م،٢/ ٧٣-٧٥.

٧. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٤٩/٨.

٨. انظر، ابن الأثير، ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، ٦٩/١.

٩. انظر، المقدسي، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ٢/ ١٦٥-١٦٩.

٣-اقتباس آيات القرآن الكريم وحلّها في رسائل الحرب

يظهر للمتتبع لرسائل الحرب إكثار الكتّاب من اقتباس آيات القرآن الكريم والاستشهاد بها في رسائلهم، إذ حلّوها فأصبحت كأنها من أصل كتابتهم، وقد يكون السبب في إكثارهم من الاستشهاد بالقرآن الكريم، رغبتهم في إرضاء أذواق النقاد، الذين يعدّون حفظ القرآن الكريم من مستلزمات الكاتب الرئيسة، وإنَّ قدرة الكاتب على الإكثار من نثر القرآن، وتضمينه في كتابته، هي من مظاهر إبداعه، وإجادته فن الترسل.

ووجد كتّاب رسائل الحرب في آيات القرآن الكريم ما يسند أفكارهم ويقويها ويرسّخها، وما يدعم معاني الجهاد التي تحدّثوا عنها في حالة ضعف المسلمين وقوتهم، لا بل وجدوا في آيات القرآن الكريم ما يعوّض عن أفكارهم، أو يختصرها، ولهذا استهلوا رسائلهم بها، واستعانوا بالآيات التي تعجُّ بالتهديد والرد المفحم على الأعداء، دون تفسير أو تصريح، وهذا ما يعطي المعاني عمقاً أبعد، فتفسر باحتمالات متعددة.

كما كانوا يأتون بآيات تبيّن أنَّ النصر لا يكون بكثرة عدد ولا عدة، إنما يكون بعون الله وتأييده، فقد ورد في رسالة للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي[١] الآية القرآنية: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[٢].

وأكثر القاضي الفاضل من اقتباس آيات القرآن الكريم وحلّها في نصوص كتابته حتى بدت كأنها من أصل إنشائه، ففي رسالته إلى الخليفة العباسي التي يبشّره فيها بفتح بيت المقدس، قال عن نعمة النصر:" فإنَّها بحر للأقلام، فيه سَبْحٌ طويل"[٣]، وفي هذا حلٌّ للآية القرآنية "إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً "[٤]، وقال عن حال الصليبيين وقد اشتد حصار المسلمين لهم:" وظنوا أنَّها من الله مانعتهم"[٥]، وفي هذا حلٌّ للآية القرآنية:" وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ"[٦]، وقال عن الصليبيين وقد طلبوا الإمهال في النزال:" فعرفهم الخادم في لحن القول"[٧]، وفي هذا القول حلٌّ للآية القرآنية:" فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ "[٨]. كما قال عن أسوار القدس وقد تهاوت بعد عصيان:" وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض"[٩]، وفي هذا حلٌّ للآية القرآنية:" فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي "[١٠]. وقال عن الكافر الصليبي وقد اشتد به الخوف:"يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا"[١١]، وعن الكفار وقد أيقنوا بمصيرهم وهزيمتهم:" حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ"[١٢]، وهكذا فقد استعان الكتّاب بآيات من القرآن الكريم برسائلهم، ووضعوها في المكان المناسب، فجاءت معبِّرة عن معانيهم أدق تعبير، ومبلغة عن مرادهم أبين تبليغ.

٤-تضمين الأشعار:

استعان كتاب رسائل الحرب لترسيخ أفكارهم بالأشعار، والأمثال والحكم والأقوال والوصايا العربية وغير العربية، بل إنَّهم أكثروا من تضمين الأشعار أو نثرها في رسائلهم كبراهين وأدلة على صدق معانيهم وصحتها واستقامتها، فقد استعان ابن الأثير في إحدى رسائله بشعر المتنبي فاستشهد ببيت من شعره لحث الخليفة العباسي في بغداد على إنجاد صلاح الدين بالأموال[١٣]، فيقول:

وثقنا بأن تعطي فلو لم تَجُدْ لنا لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم[١٤]

وضمَّن القاضي الفاضل رسالة إلى سلطان اليمن يستقدمه فيها لقتال الصليبيين بيتاً من الشعر[١٥]:

إنَّ الكريمةَ ينصرُ الكرمَ ابنُها وابنُ اللئيمةِ للئامِ نَصُورُ [١٦]

وأكثر القاضي الفاضل من الاستشهاد بالشعر في مجموعة رسائل أرسلها إلى صلاح الدين أثناء محنة عكا في الفترة من ٥٨٥هـ – ٥٨٧هـ[١٧]، حيث وصفه بأنَّه ينوب عن المسلمين في الجهاد ضد الصليبيين، وأنه يمثّل الإسلام والتوحيد، في مقابل الشرك والوثنية، فاستشهد لتأكيد هذا المعنى ببيت الشعر التالي[١٨]:

ولستَ مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيدُ للشركِ هازمُ[١٩]

كما أكثر القاضي محي الدين بن عبد الظاهر من الاستشهاد بالشعر في رسالته بفتح الملك الظاهر لقيسارية من بلاد الروم، إذ

---

١. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٥١/٨.
٢. سورة الحج، الآية ٤٠.
٣. القلقشندي: صبح الأعشى٢٨٢/٨.
٤. سورة المزمل الآية ٧.
٥. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٨٦/٨.
٦. سورة الحشر الآية ٢.
٧. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٨٧/٨.
٨. سورة محمد الآية ٣٠.
٩. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٨٧/٨.
١٠. سورة يوسف الآية ٨٠.
١١. سورة النبأ، آية ٤٠، والنص من رسالة في صبح الأعشى، ٢٨٧/٨.
١٢. سورة الحديد، آية ١٤، والنص من رسالة في صبح الأعشى، ٦/ ٤٩٦-٥٠٤.
١٣. انظر، ابن الأثير، ضياء الدين: رسائل ابن الأثير، ١ / ٧٣-٧٥.
١٤. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمّى بالتبيان في شرح الديوان، ضبط نصّه وصحّحه: د. كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٥٨/٤.
١٥. القلقشندي: صبح الأعشى،٢٥/٧.
١٦. الخطفي، جرير بن عطية: ديوان جرير، شرح: يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط١، (د.ت)، ص٣٦٨.
١٧. انظر، المقدسي، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ١٦٦/٢-١٦٩.
١٨. المصدر نفسه،١٦٨/٢.
١٩. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان أبي الطيب المتنبي،٦٥/٤.

استشهد ببيت ليدل على مطاردة جيش المسلمين للأعداء، وحال الأعداء وفرارهم من المعركة[١]:

فَلَزَّهُم الطّرادُ إلى قتالٍ أحدُّ سلاحهم فيه الفرارُ[٢]

٥-تضمين الأمثال والحكم والوصايا:

لم يكتفِ كتّاب رسائل الجهاد بالشعر لتثبيت أفكارهم وترسيخها، بل استعانوا بالأمثال والحكم والوصايا واستشهدوا بها في رسائلهم، ومن الوصايا والأقوال التي استشهد بها كتَّاب الرسائل ما قاله القاضي الفاضل في رسالة إلى صلاح الدين يحثه فيها على الصبر:"... واعلم أنَّ مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه-:" لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب"[٣]، ومن الوصايا ما جاء في رسالة القاضي الفاضل إلى صلاح الدين يقول فيها:"... ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك ما لك فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع..."[٤].

٦-الإطناب والإيجاز في رسائل الحرب:

تباينت رسائل الحرب من حيث طولها أو قصرها، وذلك بسبب اختلاف المناسبات والأسباب التي كانت وراء إنشائها، واختلاف كتَّابها وتباين قدراتهم الفنيَّة، فقد اتصفت رسائل التَّهاني بالفتوح ووصفها بشكلٍ عامٍ بالطول، ومال الكتَّاب في هذه الرَّسائل إلى ذكر كثير من الدقائق والتفاصيل التي تتعلَّق بسير المعركة، وأبرزوا في هذه الرَّسائل أمر العدو، فوصفوه بالشّجاعة والإقدام، ووصفوا حصونه بالحصانة والمنعة، وشدة الأذى على المسلمين، ولجأ الكتَّاب إلى تهويل أمر العدو لإبراز عظمة الفتح والانتصار، وشجاعة جيوش المسلمين، كما فصَّلوا أساليب جيوش المسلمين في الاستيلاء على مدن الصليبيين وحصونهم، وكانت رسائل القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين إلى الخليفة العباسيّ في بغداد أطول رسائل التَّهاني بالفتوح والتّبشير بها.[٥]

واتسمت رسائل الاستنجاد المُرسَلة إلى ملوك المسلمين خارج بلاد الشام ومصر بالطُّول أيضاً، حيث كانت تطيل في عرض الوضع العسكريّ للمسلمين، وتتحدَّث عن إمدادات الصليبيين المتنوّعة التي تصل من الغرب، وتطنب في وصف حال المجاهدين الماديَّة والمعنويَّة، وتُبيِّن حاجتهم إلى المساعدات الماديَّة من الأموال والأسلحة والطَّعام، وتحث المُرسَل إليه على سرعة النَّجدات[٦].

وأتت رسائل التهديد والوعيد متوسطة في طولها غالباً باستثناء رسالة محي الدين بن عبد الظاهر في تهديد بيمند ملك الفرنج، التي اتصفت بالطول حيث زادت على ثلاث صفحات من كتاب صبح الأعشى[٧].

وقد كانت رغبة الكتَّاب في تحقيق أكبر قدر من المحسنات البديعيَّة سبباً ثانياً من أسباب إطناب الكتَّاب في رسائل الحرب، لذا فقد أكثروا من العطف والتَّرادف، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة محي الدين بن عبد الظاهر بفتح الملك الظاهر لقَيْساريَّة من بلاد الروم:"... وتمرّنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التَّطرُّق، وتعوّدت ما تعوّدته الأوعال من التَّسرُّب والتَّسلُّق، فصارت تنحطُّ انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع الكوكب ..."[٨].

أما بقية رسائل الحرب فكان معظمها متوسط الطول يفي بالغرض الذي أُنشئت الرّسالة من أجله، أما الرّسائل القصيرة فكان عددها قليلاً جداً.

٧-تصوير عواطف المسلمين ومشاعرهم

التزم كتَّاب رسائل الحرب بالتعبير عن عواطف المسلمين وتصويرها في ظروف الحرب المختلفة، في السّراء والضّراء، وفي النّصر والهزيمة، وفي القوة والضّعف، ولم يمنع هؤلاء الكتَّاب عملهم الرسمي للحكام والسلاطين من النَّجاح والصدق في التعبير عن مشاعر المسلمين بصور بيانيَّة مُعبِّرة، إذ أكثروا من الصور البيانيَّة في رسائلهم، ونوّعوا فيها، فجاءت على شكل تشبيهات أو استعارات أو كنايات، وغيرها من الصور البديعيَّة.

وقد تنوّعت مصادر هذه الصور، فبعضها كان مستمداً من القرآن الكريم، والثقافة العربية الإسلامية، والحياة الدينية للمسلمين، كما استمد الكتَّاب كثيراً من صورهم من البيئة التي كانوا يعيشون فيها، بما في هذه البيئة من حيوانات وجبال، ووديان وأنهار ونباتات وطيور، كما أخذ الكتَّاب بعض صورهم من جو المعركة، وما فيها من خيول وأسلحة وجيوش، وبعضها استمد من الحياة الاجتماعية التي يعيشها المسلمون.

فمن الصور الدينيَّة التي وردت في رسائل الحرب، ما قاله القاضي الفاضل عن بيت المقدس وقد عاد إليه الإسلام، فقد جاء في رسالته إلى الخليفة العباسي بهذه المناسبة:"... وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهوداً، وكان الكفر مفقوداً، والإسلام مولوداً ..."[٩]، كما صوَّر القاضي الفاضل كثرة جموع الصليبيين يوم فتح بيت

---

١. القلقشندي: صبح الأعشى،١٤٦/١٤.
٢. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان أبي الطيب المتنبي،١٠٢/٢.
٣. انظر، المقدسي، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ١٦٩/٢.
٤. القلقشندي: صبح الأعشى، ٢ / ١٦٩.
٥. انظر، القلقشندي: صبح الأعشى، ٦/ ٤٩٦-٥٠٤.
٦. انظر، المصدر نفسه، ٧/ ٢٣-٢٧.
٧. انظر، المصدر نفسه، ٨ /٢٩٩-٣٠٣.
٨. المصدر نفسه، ١٤٤/١٤.
٩. القلقشندي: صبح الأعشى، ٦ / ٥٠٠.

المقدس بيوم الحشر:"... فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التَّناد ..."[١].

ومن الصور المأخوذة من البيئة الطبيعية صورة مراكب الصليبيين، وأعدادهم الكبيرة التي شُبِّهت بالأمواج، فقد جاء في رسالة:" ... ومن خبر الكفار أنَّهم الآن على عكًّا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدَّةً من أمواجه"[٢]، وجاء في رسالة أخرى أنَّ عملية تطويق جيوش الإسلام للصليبيين تشبه إحاطة الطوق بالعنق:" وتدفَّقت الجيوش فملأت الأفق، وأحاطت بهم إحاطة الطوق بالعنق"[٣]، كما صورت رسالة أخرى المنجنيق بالفحل، والقلاع بالأنثى، وجاء فيها:" وعلموا أنَّ المجانيق فحول لا تثبت لها الإناث التي عَرِيَتْ من النفع بأيديهم ..."[٤]. وهكذا فقد أكثر الكتَّاب من صورهم وأخيلتهم في رسائل الحرب، حيث تنوَّعت مصادر هذه الصور فكانت مستمدة من البيئة الاجتماعيَّة، والحياة الحربيَّة، والحياة الدينيَّة، وبعضها كانت من البيئة الطبيعيَّة.

الخاتمة

حاولنا في الصّفحات السّابقة أن نرصد الدّور الرّائد الذي بلغته رسائل الحرب في مواكبة الفتوحات الإسلاميَّة، ورسم صورة واضحة المعالم لبطولات العرب المسلمين وتضحياتهم في هذا الجانب، وقد وضح لنا من مطافنا الطويل في كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العبَّاس القلقشندي أنَّ رسائل الحرب تعدُّ من أهم الرسائل الديوانية، إذ بها تُحرَّك الجيوش من مكان إلى مكان، ومن ثغر إلى آخر، وبها يُعزل القادة والأمراء، ويُنصَّب غيرهم، وبها تأتي البشارات بالنصر أو يأتي العزاء بالهزيمة، فهي على أهمية كبرى في إدارة شؤون الدولة، وتسيير أمورها، وقد تطوّرت هذه الرَّسائل في مضامينها تطوراً لافتاً للنظر، ولهذا نرى مدى الاهتمام الخاص في انتقاء كلماتها والعبارات الموحية المعبِّرة عن مقاصدها، وقد صاحب هذا التطور المضموني تطوّر في الجانب الفنيّ نتيجة للثقافة الأدبيَّة واللغويَّة التي وجب أن يتحلَّى بها الكاتب.

واستطاعت هذه الرَّسائل أن تعكس صورةً مشرقةً عن فنون النَّثر العربيّ، وعن الدواوين التابعة للدولة الإسلاميَّة، حيث عرفنا الشّروط الواجب توافرها في كتَّابها، إضافة إلى ثقافتهم العالية التي استطاعوا من خلالها أن ينقلوا لنا صورةً حيَّةً عن حروب المسلمين وعن تحريرهم للمقدسات الإسلامية، كما بيَّنت لنا تلك الرسائل الوسائل والأسلحة التي كانت تُستخدم في تلك الحروب، وعند الحديث عن السّمات الفنيَّة لتلك الرسائل، وجدنا أنَّها متأثِّرة بالقرآن الكريم حيث أكثرت من الاقتباس من آياته الكريمة، إضافة إلى اعتمادها على المحسنات البديعيَّة بأشكالها المتنوّعة من جناس وسجع وطباق وتورية وغيرها، وهي أيضاً تزخر بالصور الفنيَّة الرائعة التي استمدها الكتَّاب من ثقافتهم الواسعة، ومن البيئة التي يعيشون فيها.

قائمة المصادر والمراجع

أ) المصادر

١. ابن الأثير، ضياء الدين: **رسائل ابن الأثير**، تحقيق: نوري القيسي، بغداد، دار الكتب، ١٩٩٢م.

٢. الخزاعي، علي بن محمد بن سعود: **تخريج الدلالات السمعيّة**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١،١٩٨٥م.

٣. الخطفي، جرير بن عطية: **ديوان جرير**، شرح: يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط١، (د.ت).

٤. ابن خلف، علي الكاتب: **مواد البيان**، تحقيق: د.حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس، ١٩٨٢م.

٥. أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل: **الروضتين في أخبار الدولتين**، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٩٧٤م.

٦. الشيباني، محمد بن الحسن: **السير الكبير**، شرح الإمام محمد بن أبي سهل السرخسي، تحقيق وتعليق: محمد أبو زهرة ومصطفى زيد، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٥٨م.

٧. العمري، ابن فضل الله: **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق: د. سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٢م.

٨. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأميرية، ١٩٦٣م.

٩. المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: **ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري**، المسمّى بالتبيان في شرح الديوان، ضبط نصّه وصحَّحه: د. كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

ب) المراجع

١. بدوي، أحمد: **الحياة الأدبيَّة في عصر الحروب الصليبيَّة بمصر والشام**، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٢،١٩٧٩م.

٢. حمادة، محمد: **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأمويّ**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

[١]. المصدر نفسه، ٥٠١/٦.

[٢]. المصدر نفسه، ١٢٧/٧.

[٣]. المصدر نفسه،٣٩٧/٨.

[٤]. المصدر نفسه،٨/ ٣٩٦.

٣. صالح، محمود عبد الرحيم: **فنون النثر في الأدب العباسي**، وزارة الثقافة، عمان، ط ١، ١٩٩٤م.
٤. قمحية، جابر: **أدب الرسائل في صدر الإسلام**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.
٥. القيسي، فايز عبد النبي: **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ**، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٨٩م.
٦. الكساسبة، رضا عبد الغني: **النثر الفنيّ في عصر الموحدين**، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، ط١،٢٠٠٤م.
٧. المقداد، محمود: **تاريخ الترسل النثريّ عند العرب في صدر الإسلام**، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.